# شعر

# الوقوف على الأطلال

## من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

### — ٤ — (١)

٣ — تخريب الديار

من المعاني العامة الأساسية في شعر الوقوف على الأطلال ذكر خراب الديار واندثار بقاياها بعد رحيل أهلها . وقد ألح الشعراء على هذا المعنى ، فذكروه كثيراً في أشعارهم ، حتى لا تكاد تخلو منه قصيدة في الوقوف على الأطلال . والصفة العامة التي تشترك فيها الديار وبقاياها جميعاً في هذا الشعر هي صفة القِدم والبِلى . كما أن الصفة العامة التي تشترك فيها جميع التشبيهات والتصاوير التي أتى بها الشعراء في معرض وصف الديار وبقاياها هي صفة القدم والبلى أيضاً .

وقد ذكر الشعراء في عرضهم هذا المعنى الأسباب في خراب الديار واندثارها . فحاولنا استقراء هذه الأسباب ، فانتهى بنا الاستقراء إلى أن الشعراء يرجعون خراب الديار إلى عاملين اثنين . أحدهما تقادم العهد ومرور الزمن ، وثانيهما حوادث الطبيعة .

أما تقادم العهد ومرور الزمن فقد جعله الشعراء سبباً لخراب الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، ولكنهم لم يهتموا به كثيراً ، ولم يقفوا عليه

---

(١) نشر القسم الأول في الصفحات ٣٥١ و ٦٣٥ و ٨٤٩ من المجلد ( ٤٣ )



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طويلاً ، فما كان يرد في أشعارهم إلا الفينة بعد الفينة . وما كان ذكرهم له مع ذلك إلا سريعاً خاطفاً ، لا يعتمد على تصوير أو تشبيه ، ولا يعدو الإشاره العابرة . قال عَبيدُ بن الأبرص (١) :

تغيَّرت الديارُ بذي الدفينِ فأودية اللِّوى ، فرمالِ لينِ
فخَرْجَيْ ذِرْوةٍ ، فقَفا ذَيالٍ يُعَفِّي آيَه سلفُ السنينِ (٢)

فقد تغيرت آيات الديار وتعفت ، لأن مرَّ السنين قد بعدت بها عن أيام غناها بأهلها وساكنيها .

وأما حوادث الطبيعة فقد جعلها الشعراء سبباً لخراب الديار أيضاً ، وذكروها كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، وتداولوها وأفرطوا في ذلك ، ولا سيما شعراء العصر الأموي . وحوادث الطبيعة التي اعتاد الشعراء أن يذكروها منذ الجاهلية ، ولم يكادوا يخرجون عن ذكرها في العصور التالية ، هي الرياح وما تذريه من التراب والرمال ، والسحاب وما ينشأ عنه من الأمطار والسيول . قال النابغة الذبياني (٣) :

أمِن ظُلامةَ الدِّمَنُ البوالي بِمُرْفَضِّ الحَبِيِّ إلى وِعالِ
تعاوَرَها السواري والغوادي وما تُذْري الرياحُ من الرمالِ (٤)

* * *

ذكر الشعراء فيما يتعلق بالرياح أنها تعفي الديار ، وتمحوها بما تسفي عليها من الحصى والتراب والرمال ، فتدفنها وتخفيها عن العيون . وقد عدَّدوا في

(١) ديوانه ١٣٢ .
(٢) الخرج بمعنى الوادي ها هنا . وآيه : أي علاماته وآثاره ، واحدها آية .
(٣) ديوانه ٦٤ .
(٤) السواري : السحاب التي تنشأ في الليل ، من سرى يسري ، إذا سار ليلاً . والغوادي : السحاب التي تنشأ في الغداة ، أي الصباح ، من غدا يغدو ، إذا سار في الغداة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معرض ذلك أكثر أنواع الرياح المعروفة عند العرب ، ومنها الرياح اللينة اللطيفة مثل ريح الصبا ، ومنها الرياح الشديدة العنيفة مثل ريح الشمال . وذكروا منها أيضاً الرياح التي تهب في فصول السنة المختلفة ، كالمصايف وهي الرياح التي تهب في الصيف ، والمرابع وهي الرياح التي تهب في الربيع .

وقد عمد الشعراء في ذكر الرياح إلى شيء من الوصف والتصوير . فشبهوا أنينها بحنين النوق وهي تحنُّ إلى أولادها التي سُلِبَتْ منها حنيناً حزيناً موجعاً . قال إياس بن عامر أعشى طرود (١) :

وعَرْصةُ الدار تستنُّ الرياحُ بها تحنُّ فيها حنينَ الوُلَّه السُّلُبِ (٢)

والتشبيه واقع بين حنين النوق الحزين الرتيب وبين دوي الريح الكئيب الرتيب حين هبوبها ومرورها بالديار . ولم يكثر الشعراء من تشبيه صوت الرياح بحنين النوق ، فلم ترد هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال إلا نادراً . وربما كان السبب في ذلك دقة هذه الصورة ، وحاجتها إلى حس رهيف دقيق ، يخترق حجاب الواقع المنظور إلى ما لا تراه العينان .

على أن هؤلاء الشعراء قد أكثروا في وصف تخريب الديار من تشبيه الرياح بالعروس وبأذيال ثوبها التي تجرها وراءها . قال الأسود بن يعفر في ذلك (٣) :

جرَّتْ بها الريحُ أذيالاً مُظاهرَةً كما تجرُّ ثيابَ الفُوَّةِ العُرُسُ (٤)

---

(١) ملحقات ديوان الأعشى ٢٨٤ .

(٢) تستن الرياح بها : أي تسرع فيها .

(٣) ملحقات ديوان الأعشى ٣٠٠ ، واللسان ( فو ) .

(٤) الفوة : عروق نبات يستخرج من الأرض ويصبغ بها الثياب . والعرس : جمع عروس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال عبيد بن الأبرص (١) :

جرَّتْ عليها رياحُ الصيف، فاطردتْ ... والريحُ فيهـا تعفيها بأذيالِ (٢)

فالريح تمر بالديار وقد جرت وراءها سحباً من التراب والرمال ، تطمس بها آثار الديار ، كما تجر العروس أذيال ثوبها خلفها ، وتطمس بهـا آثار أقدامها على الأرض .

وقد لاحظ الشعراء حركة الرياح الدورية في دفن آثار الديار بما تحمله من التراب والرمال ، ثم الكشف عنها بنسف التراب والرمال . فكلما دفنته هذه بالرمل سفرت عنه الأخرى الرمل وأظهرته . لاحظوا هذه الحركة الدائمة ، وشبهوها بعمل النسج ، نسج الثياب .

قال امرؤ القيس في مطلع معلقته (٣) :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ ... بسقطِ اللِّوى بين الدَّخول فحوملِ

فتُوضحَ فالمِقْراة لم يَعْفُ رسمُها ... لِما نَسَجَتْها من جَنوب وشَمْأَلِ (٤)

فشبَّه حركة الرياح الدورية من جنوب مرة وشمال مرة بعمل نسج الثياب ، لأن الحائك يداول في حركته أثناء النسج يمنة مرة ، ويسرة أخرى .

وقال ذو الرمة في ذلك أيضاً (٥) :

خليليَّ ، عُوجا عوجةً ناقتيكما ... على طلل بين القِلاتِ وشارعِ

به ملعبٌ من مُعْصِفات نَسَجْنَه ... كنسج اليماني بُرْدَه بالوشائعِ (٦)

---

(١) ديوانه ١٠١ .

(٢) جرت عليها : أي جرت الريح التراب عليها كما تجر العروس أذيال ثوبها .

(٣) ديوانه ٨ .

(٤) نسجتها : تعاقبت عليها مرة هذه ومرة هذه . والجنوب : ريح الجنوب . والشأل : ريح الشمال .

(٥) ديوانه ٣٥٥ .

(٦) المعصفات . الرياح الشديدة . والوشائع : لفائف الغزل ، واحدتها وشيعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالرياح العاصفة تلعب بالديار ، وتنسج آثارها بألوان وأشكال مختلفة كما ينسج الصانع اليماني الثوب ، ويزينه بالوشائع . والصورة هنا تختلف عن الصورة الأولى ، لأن امرأ القيس اهتم بالحركة ، وعُني برسم حركة المداولة في هبوب الرياح على آثار الديار ، وفي عمل الحائك في نسج الثوب ، بينما اهتم ذو الرمة بالألوان والأشكال الحادثة من عصف الرياح بآثار الديار ، ومن تزيين الصانع ثوبه بالوشائع حين نسجه .

* * *

وأما فيما يتعلق بالسحاب وتخريبها الديار فقد جعل الشعراء السحاب تعفي الديار بما ينشأ عنها من أمطار وسيول تمحو الرسوم ، وتجرف الدمن ، وتهدم النُّئيّ . وقد أكثروا من وصف السحاب والأمطار والسيول في معرض وصف تخريب الديار . وأكثروا من ذكر أنواعها وأشكالها وألوانها ، دون أن يعمدوا كثيراً إلى التصوير والتشبيه . ولكنهم وصفوا خلال ذلك العواصف وثورات الطبيعة وزحف السحاب وهطول الأمطار ، فأتوا من ذلك بصور جميلة شيقة ، ولا سيما شعراء العصر الأموي . ولقد فاق الأخطل أصحابه في ذلك كله . وهذا وصف له لعاصفة هبت على آثار ديار أحبته (١) :

دِمَنٌ تذعذعها الرياحُ ، وتارةً تُسْقى بمرتجز السحاب ثقالِ (٢)

باتتْ يمانيةُ الرياح تقـــوده حتى استقاد لها بغير حبالِ (٣)

---

(١) ديوانه ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٢) الدمن : الآثار التي يتركها الناس في الديار ، واحدتها دِمْنة . وتذعذعها : تفرقها .

(٣) تقوده : أي تقود الرياح السحابَ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مظلم غَدِق الرَّباب ، كأنما يَسْقي الأشقَّ وعالجاً بدوالي (١)

فهو يصور هنا عاصفة ثائرة ، نرى فيها الرعد مرتجزاً مدوياً ، والسحاب مترا كماً ثقيلاً ، تدفعه الرياح الهائجة ، فيتدافع ويقبل بالمطر غزيراً كثيفاً ، وقد أظلم الجو ، واسودت جوانب السماء . وكل ذلك في لفظ يسير ، وجمل قليلة قصيرة ، تمضي سريعة كسرعة العاصفة الهائجة .

## ٤ — الحيوان الذي يألف الديار

كان العرب في الصحراء يتوخَّوْن في الأرض التي ينزلونها الخصب والإنبات وملاءمة شروط الحياة . ولذا كانوا يختارون أخصب الأماكن ، وأغناها بالماء والكلأ لنزولهم . ويبدو لنا أن وحوش الصحراء كانت تألف هذه الأراضي أيضاً ، وتتوطن بها ، بعد أن يخليها أهلها ، ويرحلوا عنها . كأن لها غريزة تشبه غريزة الإنسان في البحث عن المكان الملائم لشروط حياتها .

وكان العرب يمرون في أسفارهم ورحلاتهم بالديار التي هجروها ، فيرون الحيوانات تسرح وترتع في الأماكن التي عمروها هم في الأيام الماضية ، وقضوا فيها شطراً من حياتهم ، يرونه عزيزاً غالياً ، فكان ذلك يؤلمهم ويثير في نفوسهم ذكريات حلوة جميلة . ولذا كان الشعراء يذكرون هذه الحيوانات التي أوطنت بديارهم في شعر الوقوف على الأطلال ، كأن نفوسهم تأسى لذلك ، وكأن لسان حالهم يقول : ما أقسى صروفَ الأيام ! لقد عمرنا هذه الديار حيناً من الدهر ، ثم اضطررنا لهجرها ، فسكنتها بعدنا الوحوش . وكأننا

---

(١) في مظلم : أي في سحاب مظلم ، والسحاب المظلم يكون مليئاً بالماء . والغدق : السحاب الغزيرُ المطر . والرباب : السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب . والأشق وعالج : موضعان . والدوالي : جمع دالية ، وهي الدولاب يديرها الثور ، أو الناعورة لسقي الأرض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بهؤلاء الشعراء يضنون بهذه الديار على الوحوش ، لأن فيها بقية من ذكريات حياتهم الماضية ، ما زالت أطيافها تتردد جاثية ذاهبة في ساحاتها وجناتها .

ومهما يكن من أمر فقد ذكر الشعراء الحيوانات التي تألف الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، وأكثروا من ذكرها ، حتى جعلوا ذلك معنى من المعاني اللازمة التي وردت في هذا الشعر على مدى العصور .

وحيوانات الصحراء قليلة ليست بالكثيرة . ومن استقراء شعر الوقوف على الأطلال نجد أن الشعراء لم يذكروا فيه سوى البقر الوحشي والظباء والنعام ، وصغار هذه الحيوانات أحياناً ، ثم الطيور ، ولا سيما الحمام . وقد أكثر الغزلون البداة من ذكر الحمام ، وتغنوا بصوته خاصة دون غيرهم من الذين سبقوهم أو الذين جاءوا بعدهم .

ويمكننا أن نقول إن الشعراء قد ذكروا هذه الحيوانات في معرض وصف الديار بالخلو والإقفار . فمرة يقولون إن الديار خالية مقفرة ، ليس بها أحد سوى قطيع من البقر ، أو سرب من الظباء ، أو إجل من النعام ، كما قال المرقش الأكبر (١) :

أمستْ خلاءً بعد سكانها ... مقفرةً ما إن بها من إرَمْ (٢)
إلاَّ من العين تَرَعَّى بها ... كالفارسيّين مشَوْا في الكُمَمْ (٣)
بعد جميع قد أراهم بها ... لهم قِبابٌ ، وعليهم نَعَمْ (٤)

ومرة يقولون إن الديار قد أقفرت من ساكنيها ، وتبدلت بهم الحيوانات ،

---

(١) المفضليات ٢٢٩ .
(٢) من إرم : أي من أحد .
(٣) العين : بقرات الوحش ، واحدتها عيناء . والكمم : القلانس .
(٤) الجميع : القوم المجتمعون النازلون في موضع واحد . وعليهم نعم : أي لهم أنعام تروح عليهم ، وهي الإبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما قال النابغة الذبياني (١) :

عهدتُ بها حياً كراماً فبُدِّلَتْ ... خناطلَ آجالِ النعام الجوافلِ (٢)

ترى كلَّ ذيَّالٍ يعارضُ رَبْرَباً ... على كل رَجَّافٍ من الرمل هائلِ (٣)

يثرن الحصى حتى يباشرنَ برده ، ... إذا الشمسُ مدَّتْ ريقها بالكلاكلِ (٤)

وقد وصف الشعراء هذه الحيوانات بصفات كثيرة ، وشبهوها في أثناء ذلك تشبيهات مختلفة ، حسب أنواعها كما رأينا في المثالين اللذين ذكرناهما . ولكنهم لم يقفوا على صور معينة يتداولونها ، ولا يخرجون عنها ، كما كان الأمر في وصف الديار وتصويرها مثلاً . ونحن نذكر ، إلى المثالين السابقين ، طرفاً من هذه الشبيهات على سبيل المثال .

شبَّهَ طرفة النعامَ بالإماء ، وهن يحملن حزمَ الحطب على رؤوسهن في قوله (٥) :

حابسي رسمٌ وقفتُ به ... لو أطيع النفسَ لم أرِمْهُ

لا أرى إلا النعامَ به ... كالإماء أشرفتْ حُزَمُهْ

والصورة طريفة جداً ، فالنعام قوائمه طويلة ، تبدو دقيقة بالقياس إلى جسمه الثقيل المشرف ، ويزيده إشرافاً ريشه المتدلي على جانبيه . وهو

---

(١) ديوانه ٦٣ .

(٢) الخناطل : الجماعات ، واحدتها خنطلة وخنطل . والآجال : قطعان النعام ، واحدها إجل .

(٣) الذيال : ثور الوحش الطويل الذيل والربرب : قطيع بقر الوحش . والرجاف من الرمل : الذي يتحرك وينهار حين وطئه من لينه . والهائل : الذي ينهال .

(٤) ريق الشمس : لعابها وهو يبدو في الهاجرة كأنه يسيل من شدة الحر . بالكلاكل : أي يثرن الحصى بالكلاكل ، وهي الصدور ، واحدها كلكل .

(٥) ديوانه ١٥٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يُشبه بهذه الحالة الإماءَ اللواتي يحملن حزمَ الحطب على رؤوسهن ، فتبدو أجسامُهن دقيقةً رقيقةً تحت هذه الحزم العريضة المشرفة .

وشبَّهَ عبيد بن الأبرص الظباءَ بأباريق الفضة في قوله (١) :

بُدِّلْتُ منهم الديارُ نعاماً ... خاضباتٍ يُزْجين خَيْطَ الرئالِ (٢)

وظباءً كأنهن أباريقُ ... لُجَيْنٍ ، تحنو على الأطفالِ

والصورة هنا طريفة جداً أيضاً . والظباء تشبه أباريقَ الفضة حقاً بطول أعناقها وحسنها في دقتها ورقتها ورشاقتها وبياضها .

وقد أكثر الشعراء من وصف بقر الوحش بالعَيَن وطول الذيل والخَنَس . قال النابغة الذبياني (٣) :

أهاجكَ من سُعْداكَ مغنى المعاهدِ ... بروضة نُعْميٍّ فذات الأساودِ

تعاوَرَها الأرواحُ يَنْسِفْن تربَها ... وكلُّ مُلِثٍّ ذي أهاضيبَ راعدِ (٤)

بها كلُّ ذيَّالٍ وخنساءَ ترعوي ... إلى كل رَجَّافٍ من الرمل فاردِ (٥)

وهم قد أكثروا أيضاً من وصف هذه الوحوش بأنها مَوْشِيَّة الأكارع ، ولا سيما الشعراء الأمويون ، حتى صار ذلك شبه قاعدة عامة عندهم .

---

(١) ديوانه ١٠٦ .

(٢) نعام خاضبات : خضب الكلأ سيقانها في الربيع . والخيط : جماعة النعام . والرئال : فراخها ، واحدها رأل .

(٣) ديوانه ٣٣ .

(٤) تعاورها : تداولها هذه مرة ، وهذه مرة . والملث : السحاب يكون مطره دائماً . والأهاضيب : دفعات المطر .

(٥) الخنساء : بقرة الوحش التي في أنفها خَنَس . وترعوي : تعطف وترجع . والرجاف من الرمل : الذي يتحرك وينهار عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الأخطل (١) :

فما به غيرُ مَوْشيّ أكارعُه ... إذا أحسَّ بشخص نابيءٍ مثلا (٢)

يرعى بخَيْنفَ أحياناً ، ونُضْمره ... أرضٌ خلاءٌ وماء سائلٌ غَلَلا (٣)

والشعراء منذ الجاهلية قد اعتادوا كذلك عند ذكر هـذه الحيوانات أن يذكروا معها صغارَها أحياناً ، وهي تتبع أُمَّاتها ، أو تمشي أمامها .

قال زهير (٤) :

هاج الفؤادَ معارفُ الرسمِ ... قفر بذي الهضبـــات كالوشمِ (٥)

تعتـــاده عينٌ ملمعـــةٌ ... تزجي جآذرَها مع الأُدْمِ (٦)

( يتبع ) الدكتور عزة حسن

(١) ديوانه ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) موشي أكارعه : أي ثور في قوائمه سواد وبياض . ومثل : أي إذا أحس بشخص آتٍ زال عن موضعه .

(٣) خينف : وادٍ بالجزيرة . وسائل غلّلا : أي يسيل متعلعلاً من مكان إلى مكان .

(٤) ديوانه ٣٨٢ .

(٥) معارف الرسم : علاماته المعروفة .

(٦) العين : بقرات الوحش ، واحدتها عيناء ، سميت بذلك لسعة أحداقها . والملمعة : التي بها لمع تخالف سائر لونها . والجآذر : أولادها ، واحدها جؤذر . والأدم : الظباء البيض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net